حسين القبانى

والصمود فوق المحن

obeikandl.com

كان الحاج محمد القباني يعمل بالتجارة.. وكان قد طلق زوجته الأولي (هند) ومعها أولاد ثلاثة.. وتزوج بأخرى سرعان ما رحلت عن الحياة تاركة ثلاثة من الأولاد الصغار.. كان أكبرهم هو حسين.. وأوسطهم جمال.. وأصغرهم فاطمة.

وفى عام ١٩٢٧م قرر الحاج محمد القباني أن يحج إلى بيت الله الحرام.

ويذهب الأب إلى الأراضي المقدسة، لكن شاء الله ألا يعود إلى وطنه وأولاده ويدفن هناك..

مات الأب تاركاً إيراداً شهرياً لا يقل عن مائة جنيه – وكان هذا مبلغاً كبيراً آنذاك – وكان إيراداً كفيلاً بأن يعيش الأولاد حياة كريمة فى بيتهم الكبير بجزيرة الروضة بالقاهرة.

لكن لم تسر الأمور كما ينبغي.. وسرعان ما اقتحمت مطلقة الأب وأبناؤها البيت الكبير وأقامت فيه.. بل رفعت قضية لضم الأولاد إلى أخيهم الأكبر (هاشم).. حتى تستفيد هى وأبناؤها من ميراث الأب الكبير.

بدأ الطفل حسين يفاجأ باقتحام اليتم والحرمان وقسوة زوجة الأب التى صممت على أن يعيش حسين وأخوه جمال فى البدروم الرطب من البيت الكبير.. وأن تعيش فاطمة مع جدها فى ميت غمر.

لم يكن هذا البدروم صالحاً لحياة بشر ولا حيوان.. وكثيراً ما ملأته مياه الفيضان فى شهري أغسطس وسبتمبر.. فى حين عاشت المرأة مع أبنائها يستمتعون بالطابق العلوي المؤثث جيداً وبالولائم الصاخبة..

وكثيراً ما كانت المرأة تطلب من حسين وجمال أن يقوما بأعمال الخدم والنظافة برغم وجود خدم فى البيت.. فإذا حاولا العصيان.. عاقبتهما بالحرمان من الطعام ومن المصروف اليومي الضئيل.

وتتوالي أيام الشقاء والحرمان وسوء المعاملة ورطوبة الجو فى البدروم والآلام النفسية واليتم.. حتى جاء يوم حاول فيه حسين أن يقوم من نومه ليذهب إلى المدرسة مع أخيه جمال كعادتهما.. لكنه لم يستطع، فقد شعر بأنه محموم عاجز عن النهوض من الفراش.. وإذا ركبتاه يصيبهما ورم وألم شديدان لا يدرى من أين جاءا.

لاحظ جمال عدم قدرة أخيه على النهوض..

وحاول أن يساعد أخاه على النهوض.. لكنه اكتشف عجزه عن ذلك فجلس بجواره حزيناً.. لكن حسيناً طلب إليه أن يذهب هو إلى المدرسة ويتركه..

عاد جمال من المدرسة ظهراً فرأى أخاه يزداد وجعاً وألماً واكتشف أن أحداً لم يسأل عنه.. لا مفر إذن من الركود فى هذا الجو الرطب.. وملازمة أخيه له ومساعدته فى كل شئ.

ويصل الأسرة خطاب من المدرسة يهدد بفصل حسين.. فيهبط إليه الوصي "أخوه الكبير من زوجة الأب" ويطلب الذهاب إلى الطبيب لاستحضار شهادة طبية تتيح له التقدم لامتحان آخر العام..

وقرر الطبيب أن الفتى مصاب بنزلة معوية حادة.. وروماتيزم حاد وباراتيفويد.. وخشيت زوجة الأب وأبناؤها على أنفسهم من العدوى فأرسلوا به إلى قسم الأطفال بمستشفى "الملك" بالمنيرة حيث مكث هناك خمسة عشر شهراً.

ويقرر الأطباء خروج حسين من المستشفى بعد أن يئسوا من شفائه، وكان قد صار مقعداً تماماً.

ويحاول الجد فى القرية أن يعزل الوصي – الأخ الأكبر – لأنه أساء التصرف وتسبب فى مرض حسين.. لكن المحاولات باءت بالفشل.. وكان مرض حسين قد تسبب فى انقطاعه عن الدراسة أربع سنوات لكنه – وقد صار يتعايش مع محنته – قرر أن يستأنف الدراسة.. فحصل على الشهادة الابتدائية فى الوقت الذى حصل فيه شقيقه على شهادة الكفاءة (الثانوية).

وتنتقل الأسرة الصغيرة: حسين وجمال وفاطمة إلى حي باب الشعرية فى غرفة صغيرة.. ويواصل حسين تعليمه.. واعتمد الأخوة الثلاثة على أنفسهم.. ثم انتقلوا فى أطراف حلوان.. وكان حسين قد بدأ يقرأ كل ما يقع فى يده من

كتب.. فإذا ملّ القراءة تناول فرشاة الرسم بالزيت ليرسم المناظر الطبيعية.

وفى يوم قرأ سيرة ذاتية لأحد كبار الكتاب.. وكيف بدأت محاولته الأولي للكتابة.. وهنا سأل نفسه: أنت تقرأ كثيراً فلماذا لا تكتب ويكون لك اسم شهير فى عالم الإبداع.

كان ذلك فى نوفمبر ١٩٤٠م حيث أمسك القلم ليكتب قصة قصيرة ولم يتوقف منذ ذلك التاريخ عن الكتابة والنشر..

وسمع يوماً عن معهد بريطاني لتعليم الصحافة والتأليف عن طريق المراسلة فاشترك فى هذه الدراسة واستفاد منها كثيراً.

وفى عام ١٩٤٧م صدرت ه أول مجموعة قصصية بعنوان (يقظة الروح) وفيها أول قصة كتبها (زوجة الأب).. وفاز بالمجموعة فى مسابقة نادي القصة.

وفى عام ١٩٤٩م صدرت له رواية (دعاء الفجر) وهى رواية طويلة.. وفى عام ١٩٤٨م أصدر مجلة (المهرجان) التى تهتم بالقصة القصيرة.

وتتوالي أعماله المؤلفة والمترجمة طوال حياته التى عاشها ببساطة وقوة وإرادة وأمل.. متحملاً كل الصعاب والمشاق.. فكان مثلاً رائداً لمن يعشقون الحياة.. ويعيشون حياتهم بكل ما فيها من جمال واستمتاع.